

الفصل السابع الكتابة والكتاب

١

التلوين

كان العرب في الجاهلية أميين ، لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليل منهم ، فلما جاء الإسلام أخذ يحضهم - كما مر بنا - على تعلم الكتابة وعلى العلم والتعلم . وكان اختلاطهم بعد الفتح بالأعاجم مهيباً لهم أن يقفوا منهم على فكرة الكتاب وأنه صحف يُجمع بعضها إلى بعض في موضوع معين . وقد أخذوا يتحاون سريعاً من أمة أممية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة ، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية .

وكان من أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم ، ومن ثم كثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار^(١) ومن أشهرهم دغفل^(٢) بن حنظلة السدوسي المتوفى سنة ٧٠ للهجرة ، وله مجالس عند معاوية دُوت في كتاب له اسمه «التصايف والتناصر»^(٣) وهي تدور بينهما في أسلوب حوارى ، إذ يسأل معاوية عن قبائل العرب ويحبيه دغفل بعبارات بليغة ، وقد احتفظ الجاحظ منها في بيانه ببعض إجابات طريفة.^(٤)

الاستيعاب لابن عبد البر ص ١٧٣ أن معاوية أمره أن يعلم يزيد ابنه العربية والأنساب .
(٣) انظر التحفة البهية (طبعة إستانبول) ص ٣٨ .
(٤) البيان والتبيين ١/ ١٢١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٨٠/٢ .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة (طبعة جوتنجن) ص ٢٦٥ والبيان والتبيين ١/ ٣١٨ وما بعدها
(٢) راجع في ترجمة دغفل المعارف ص ٢٦٥ والفهرست (طبع مصر) ص ١٣١ وأمثال المهدي ٢/ ٢٧٣ والإصابة ، وفي

ويجانب ذلك نجد القبائل تُعَنِّي بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها، وتكاثرت هذا التدوين في الكوفة حيث كانت تعيش الأرستقراطية العربية ، مما أتاح الفرصة للرواة من أمثال حماد الراوية أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلي وكل ما يتصل به من أخبار وأيام^(١) . وبين أبدينا أخبار مختلفة تدل على أن الشعر الإسلامي كان يُكْتَتَبُ ويدون ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ذى الرِّمَّة من أنه كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتب شعري فالكتاب أحب إلى من الحفظ ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهى في طلبها ليلته ، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ، ثم يُنشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »^(٢) ، وفي أخبار جرير أنه كان يأمر راويته حسينا بإعداد ألواح ودواة ليُملئ عليه بعض أشعاره^(٣) وأنه كان يقول لساميه بالميربد قيّدوا قيّدوا أي اكتبوا^(٤) ، وفي الأغاني أن خالد بن كلثوم الكلبي كان يدون شعره وشعر الفرزدق^(٥) . ونحن لا نصل إلى عصرهما حتى يتكون بالبصرة والكوفة جيل من الرواة ، يُعَنِّي بتدوين أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم ، لعل خير من يمثله أبو عمرو بن العلاء ، وفيه يقول الجاحظ : « كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له ، إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (تنسك) فأحرقها كلها ، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظ بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »^(٦) .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تُقاس إلى عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عُنيت بتفسير الذكر الحكيم ورواية الحديث النبوي وتلقين الناس الفقه وشئون التشريع . وكان كثيرون من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعون . وقد اشتهر ابن عباس في مكة بما كان يحاضر في تفسير القرآن الكريم ، وحمل عنه تفسيره نفاً من التابعين

(١) أغاني (دار الكتب) ٩٤/٦ .

(٤) ابن سلام ص ٣٧٤ .

(٢) الحيوان ٤١/١ .

(٥) أغاني (سلس) ١١/١٩ - ١٢ .

(٣) نفاث جريير والفرزدق (طبعة بيغن)

(٦) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

ص ٤٣٠ وانظر أغاني (دار الكتب) ٣٢/٨ .

أمثال مجاهد وعطاء، ويقول ابن حنبل «مصر صحيفة في التفسير عن ابن عباس رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً»^(١). ولا يحتمل تفسير الطبري تفسير ابن عباس وحده، بل يحمل أيضاً كل ما رواه الرواة عن معاصريه أمثال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب. وقد أخذت تعظم هذه المادة بما أضاف إليها التابعون. وما نشك في أن كثيراً منها دون في هذا العصر، وإلا ما وصلت إلى الطبري. وكان الصحابة والجيل الأول من التابعين كما مر بنا في غير هذا الموضع يترددون في تدوين الحديث، غير أن بينهم قوماً كانوا لا يكتفون بالحفظ خشية النسيان، فعمدوا إلى كتابة ما سمعوه على نحو ما بصور لنا ذلك البغدادي في كتابه «تقييد العلم». ونحن لا نصل إلى عصر عمر بن عبد العزيز حتى نراه يأمر بتدوين الحديث، ويعننى بذلك كما مر بنا الزهري المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة فيدونه، ويتابع التدوين فيه. وعلى نحو ما أخذوا في تدوين الحديث والتفسير أخذوا في تدوين الفقه، وخاصة تلاميذ ابن مسعود كما يلاحظ ذلك ابن قيم الجوزية، فإنهم حرروا فتياه ومذهبه في التشريع^(٢). ويذكر جولدتسيهر أن عروة^(٣) بن الزبير كانت له كتب فقه احترقت يوم الحرة^(٤). ويظهر أن عناية الشيعة بكتابة الفقه كانت قوية لاعتقادهم في أنهم المهادون المهديون الذين ينبغي أن يلتزموا بفتاواهم ومن ثم عنوا بفتاوى علي وأفضيته؛ ويظهر أن أول من ألف فيها سليم بن قيس الهلالى معاصر الحجاج^(٥)، وذكر جولدتسيهر أنه يوجد في المكتبة الأمروزية بميلانو مختصر في الفقه اسمه «مجموعة زيد بن علي»^(٦).

وأخذت تدون منذ القرن الأول معازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن عنوا

- | | |
|---|---|
| (١) انظر النوع التاسع والسبعين في كتاب الإتيان للسيوطي. | وصفة الصفوة ٢/٧٧؛ والمعارف لابن قتيبة ص ١١٤ |
| (٢) وراجع تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمصطفى عبد الرزاق ص ١٩٢ وانظر إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية. | (٤) انظر مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |
| (٣) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب. | (٥) الفهرست ص ٣٠٧. |
| (٤) انظر في ترجمة عروة تهذيب التهذيب. | (٦) مادة فقه في دائرة المعارف الإسلامية. |

بها عروة بن الزبير وأبان^(١) بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ للهجرة وهب^(٢) ابن منبه المتوفى سنة ١١٤. وأخذت تنضم إليها مادة تاريخية إسلامية عن الفتح وأخبار الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وخلافة ابن الزبير ومقتل الحسين، ومن كل ذلك ألف المؤرخون الخضرمون الذين عاشوا في العصرين الأموي والعباسي كتبهم التاريخية التي يُفِيضُ الفهرست لابن النديم في بيان أسماؤها، وعلى رأسهم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦. وابن إسحق المتوفى سنة ١٥٠. ومنذ أوائل العصر نجد عناية بأخبار الأمم السالفة، وتمثلت هذه العناية في معاوية، إذ استقدم عبّيد^(٣) بن شريّة الجهمي اليمنى ليحدثه في مجالسه عن أخبار ملوك العرب الماضين، وأمر معاوية بعض غلمانه بكتابة ما كان يسرده من تاريخهم، فتألف من ذلك كتابه «أخبار الأمم الماضية» وكان متداولاً في عصر المسعودي^(٤). وقد طُبِعَ له في «حيدرآباد» كتاب باسم «أخبار عبيد بن شريّة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها» وهو يدور في أسلوب حوارى، إذ يسأل معاوية ويحجب عبيد، ويسهلُّ بأخبار عاد ولقمان وتعود ثم يتحدث عن هجرة جرهم من اليمن وأخبار تبع إلى زمان مملكة طسم وجديس، وتتخلله أشعار كثيرة. ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه، وهو يتحدث عن ملوك حمير والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى «البتداء في الأمم الخالية» ذكره المقدسى^(٥) وقال السخاوى إنه كثير الخرافات^(٦). وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية كتاب يُنسب إليه باسم «قصص الأنبياء». ويلمع في هذا الاتجاه من أخبار أهل الكتب السماوية اسم كعب^(٧)

(٣) راجع في ترجمته الفهرست ص ١٣٢ والمعرين لأبي حاتم السجستاني ومعجم الأدباء. ٧٢/١٢.

(٤) مروج الذهب (طبعة أوربا) ٤/٨٩.

(٥) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١١٥.

(٦) الإعلام بالتوبيخ ص ٤٨.

(٧) انظر في ترجمة كعب الإصابة والمعروف

ص ٢١٩ وابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦.

(١) انظر في ترجمة أبان المعارف

ص ١٠١ وتهذيب التهذيب والفهرست ص ٤٥

وإبن سعد ١١٢/٥ والنووى (طبعة وستنفلد)

ص ١٢٥.

(٢) انظر ترجمته في كتاب المعارف

ص ٣٠١، ٢٣٣ وطبقات ابن سعد ٥/٣٩٥

وميزان الاعتدال ٣/٢٧٨ وتهذيب ابن حجر

وطبقات الحفاظ للسيوطى ١/١٧ وشذرات

ابن العباد ١٥٠/١١٥٠.

الأخبار المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان من يهود اليمن وأسلم وقد طبع له في القرن الماضي كتاب بمطبعة بولاق « في حديث ذي الكفيل » .

وتلقانا بجانب ذلك إشارات إلى مصنفات تاريخية وأدبية وعقيدية ، من ذلك وَضَعُ زياد بن أبيه لكتاب في المثالب ^(١١) وَوَضَعُ ابن مفرغ الشاعر قصة تُبَعِّع وأشعاره ^(١٢) وتأليف كل من علاقة الكلاني ^(١٣) معاصر يزيد بن معاوية وصُحَّار ^(١٤) العبيدي كتاباً في الأمثال. ومن ذلك كتاب ^(١٥) في الوصايا والحكم للمستورد بن عُلفَة الخارجي . ومن ذلك أيضاً تصنيف وهب بن منبّه لكتاب في القَدْر ^(١٦) ، ويقول صاحب الفهرست إن لغيلان ^(١٧) المرجيء رسائل في ألبي ورقة ^(١٨) ، ومع أنها كانت تدور في المواعظ ^(١٩) تؤمن بأنها حملت آراءه في الإرجاء . ويقول الجاحظ إن رسائل واصل بن عطاء رأس المعتزلة وخطبه كانت مدونة. ^(٢٠) ومرّ بنا في الفصل السابق ذكر رسالتين للحسن البصري أرسل بهما إلى الحجاج وعبد الملك بحتج لرأيه في القدر ، وهو ممن أملوا تفسيراً حُمِلَ عنه ^(٢١) . ونجد يونس الكاتب يضع أول كتاب في الغناء ^(٢٢) ، وقد نسب له صاحب الفهرست فيه ثلاثة كتب ^(٢٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على اتساع حركة التدوين في عصر بني أمية ، ولا نشك في أن القوم دونوا جملة رسائلهم السياسية ، وإلا ما استطاع الطبري وغيره أن يرووها وكذلك قُلَّ في رسائلهم الوعظية والشخصية فإنهم دونوا منها كثيراً . ويسوق لنا صاحب الفهرست أسماء طائفة من الكتاب البلغاء لهذا العصر كانت رسائلهم مدونة . ^(٢٤) وبالمثل كانوا يدونون كثيراً من خطبهم ، وخاصة خطب

- | | |
|--|---|
| (١) انظر الفهرست ص ١٣١ . | (٩) انظر عين الأخبار ٣٤٥/٢ . |
| (٢) أغاني (سأسي) ٥٢/١٧ . | (١٠) البيان والتبيين ١٥/١ . |
| (٣) الفهرست ص ١٣٢ . | (١١) مختصر جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ٣٧ . |
| (٤) نفس المصدر ص ١٣٢ . | (١٢) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) |
| (٥) المبرد ص ٥٧٨ . | ٣٩٨/٤ . |
| (٦) انظر معجم الأدباء ٢٥٩/١٩ . | (١٣) الفهرست ص ٢٠٧ . |
| (٧) مضت مصادر ترجمته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . | (١٤) الفهرست ص ١٧٠ وما بعدها . |
| (٨) الفهرست ص ١٧١ . | |

الخلفاء والخطباء الناهيين وعظماً وغير وعظماً ، من مثل الحسن البصرى وواصل ومثل خالد بن صفوان^(١) المتوفى سنة ١٣٥ وفيه يقول الجاحظ كما أسلفنا : «لكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين»^(٢) ومرت بنا في الفصل السالف موعظة لزياد بن أبيه كان يتداولها الناس وكتبها عبد الملك بن مروان بيده .

وأخذوا منذ أوائل هذا العصر ينقلون عن الموالى بعض معارفهم ، وقد مرَّ بنا في حديثنا عن الثقافة كيف كان خالد بن يزيد بن معاوية مشغولاً بكتب النجوم والكيمياء والطب . ويقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحمرات ، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته في الصنعة »^(٣) . ومرَّ بنا أيضاً أن عمر بن عبد العزيز أمر ماسرجويه بنقل كتاب القس أهرن في الطب ، ويروى الرواة أن ثياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف نظم في علم الصحة قصيدة ظل الناس يتناقلونها حتى عصر ابن سينا^(٤) وذكرنا أيضاً أن سالماً مولى هشام نقل بعض رسائل أرسططاليس من اليونانية ، وقد اشتهر تلميذه عبد الحميد بنقل بعض رسائل الفرس السياسية^(٥) . ويقال إنه نُقل لهشام كتاب عن الفارسية في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية^(٦) . ومعنى كل ما قدمنا أن التدوين أخذ يذيع وينتشر بين العرب لهذا العصر في جميع فروع المعرفة دينية وغير دينية وعربية وغير عربية . ونقف الآن لتحدث عما خَلَّفَ العصر من رسائل مختلفة .

٢

كثرة الرسائل المدونة

تزخر كتب التاريخ والأدب برسائل سياسية كثيرة أُثرت عن هذا العصر .

- | | |
|---|--|
| (١) انظر في خالد المعارف ص ٢٠٦ | (٤) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١٢١/١ وابن القفطى ص ١٠٥ . |
| والبيان والتبيين في مواضع متفرقة (راجع الفهرست) وابن خلكان ومعجم الأدباء ٢٤/١٢ والفهرست ص ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٨١ . | (٥) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة الحلبي) ص ٦٩ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٣٤٠ وانظر الفهرست ص ١٥١ . | (٦) انظر «صفحات عن إيران» لصداق نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو) ص ٨١ |
| (٣) الفهرست ص ٤٩٧ . | |

وحقاً هناك كتب تزيّدت في هذه الرسائل ونقصت كتب الشيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحينا هذين الكتابين وأضربهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطبري والبيان والتبيين والكامل للمبرد استقبلتنا وخاصة في الطبري سيول من هذه الرسائل كتبها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشيعة والزيديين ومنّ ثاروا على الدولة الأموية أمثال ابن الأشعث ، كما كتبها خلفاء بني أمية وولاهم وقوادهم .

ولن نستطيع أن نعرض كل ما رُوِيَ للخوارج من رسائل ، لكثرتها ، ومن ثمّ سنكتفي بالحديث عن أهم رسائلهم ، ومعروف ما شتجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرقهم أربع فرق ، هي الأزارقة والنجدية والصبثية والإباضية ، وقد مضى الأولون بقيادة نافع بن الأزرق يجرّمون القعود عن الخروج ويستحاثون دماء المسلمين وقتل أطفالهم ، وخالفهم في ذلك الفرق الأخرى . ويسوق المبرد في تصوير هذا الخلاف رسالتين^(١) متبادلتين بين نَجْدَةَ بن عامر الحنفي زعيم النجدات ونافع بن الأزرق ، فنجدة يراجعه في مقالته ، ونافع يحتج لها . والرسالتان وثيقتان طريقتان في بيان مقالتي النجدات والأزارقة . ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قواد مصعب بن الزبير حرباً عنيفة على الرغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولا ب ، فقد ظلوا يحاربون قائده المهلب ، حتى إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم ، وظلت الجيوش توجه إليهم ، يوجهها ولاية العراق وخاصة الحجاج ، وكان زعيمهم لعده قطري ابن الفُجاءة ، ونرى الحجاج يرأسه مهدداً متوعداً ، ويرد عليه قطري بنفس الصورة من التهديد والتوعد ، ونحن نسوق رسالتين^(٢) لهما تصوران كيف كان يراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج ، أما رسالة الحجاج فتجري على هذا النمط .

«سلام عليك . أما بعد فإنك مرّقت من الدين مَرّوقَ السهم من الرميّة ، وقد علمت حيث تجرّثمت ،^(٣) ذاك أنك عاصي لله ولولاة أمره . غير أنك أعرابي

(١) المبرد ص ٦١١ وما بعدها .

ص ٢١٤ .

(٢) البيان والتبيين ٢/٣١٠ وانظر المبرد

(٣) تجرّثمت الشيء : أخذت معظه .

جِلْفٌ^(١) أُمِّيٌّ تَسْتَظِمُ^(٢) الْكَيْسِرَةَ وَتَسْتَشْفِي^(٣) بِالْتَمْرَةِ، وَالْأُمُورَ عَلَيْكَ حَسْرَةً،
خَرَجْتَ لَتَالِ شُبُعَةٍ^(٤)، فَلَحَقَ بِكَ طَعَامٌ^(٥) صَلَوًا بِمَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ
فَهَمَّ يَهْرُونَ الرِّمَاحَ وَيَسْتَنْشُونَ^(٦) الرِّيحَ، عَلَى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أُمُورِهِمْ،
وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمَ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِنَزْحَتَيْنِ^(٧).
وَالسَّلَامُ» .

وأجابه قطري :

« سلام على المُدْمِةِ مِنَ الْوَلَاةِ الَّذِينَ يَرْعَوْنَ حَرِيمَ اللَّهِ وَيُرْهِبُونَ نِقَمَتَهُ،
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَظْهَرَ مِنْ دِينِهِ، وَأُظْلَعَ بِهِ أَهْلَ السَّفَالِ^(٨) وَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ
وَنَصَرَ بِهِ عِنْدَ اسْتِخْفَاكَ بِحَقِّهِ . كَتَبْتَ إِلَيَّ تَذَكُّرَ أَنِّي أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ أُمِّيٌّ
أَسْتَظِمُ الْكَيْسِرَةَ، وَأَسْتَشْفِي بِالْتَمْرَةِ، وَلِأَعْمَرِيَّ يَا بَنَ أُمَّ الْحِجَاكِجِ^(٩) إِنَّكَ لَمُنِيَّةٌ فِي
جَيْبِلَتِكَ^(١٠)، مُطْلَخِيْمٌ^(١١) فِي طَرِيقَتِكَ، وَاهٍ فِي وَثِيقَتِكَ^(١٢)، لَا تَعْرِفُ اللَّهُ
وَلَا تَجْزَعُ مِنْ خَطِيئَتِكَ، يَسْتِ وَأَسْتِ يَا سَيَّاسَةَ مِنْ رَبِّكَ، فَالشَّيْطَانُ قَرِينُكَ،
لَا تَجَاذِبُهُ وَتَأَقُّكَ، وَلَا تَنَازِعُهُ خِنَاقَكَ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ أَهْرَزَ لِي
صَفْحَتِكَ، وَأَوْضَحَ لِي صَلْعَتَكَ^(١٣)، فَوَالَّذِي نَفْسُ قَطْرِي بِيَدِهِ لَعَرَفْتُ أَنَّ
مُقَارَعَةَ الْأَبْطَالِ لَيْسَ كَتَصْدِيرِ^(١٤) الْمَقَالِ، مَعَ أَنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْدَحُضَّ اللَّهُ
حُجَّتَكَ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي مُهْنَجَتَكَ» .

وواضح أن كلا منهما يرى صاحبه بالضلالة والغواية ، وقد عنيا جميعاً
بالتأق في أسلوبهما . ومن ثمَّ زَيَّنَا كَلَامَهُمَا بِالسَّجْعِ . وَإِذَا تَرَكْنَا الْأَزَارِقَةَ
إِلَى الصُّفْرِيَّةِ وَجَدْنَا شَيْبًا يَرِاسِلُ صَالِحِ بْنِ مَسْرَحٍ حَاضِمًا عَلَى الْخُرُوجِ^(١٥) .
وَلَمْ تَحْتَفِظِ الْمَصَادِرُ بِرِسَائِلِ لِلنَّجْدَاتِ وَالْإِبَاضِيَّةِ .

- | | |
|--|--|
| (١) جلف : جاف . | (٨) أظلم : من الظلم وهو العرج . السفال : |
| (٢) تستظم الناس : تألم أن يطموك . | سفل الخلق . |
| (٣) تستشفي : تطلب الشفاء . | (٩) يقولون ذلك إذا أرادوا الطعن في النسب . |
| (٤) الشبعة : ما يشع من الطعام . | (١٠) منيه : مضلل . الجبلبة : السجبة . |
| (٥) طعام الناس : أرذالم . | (١١) مطلقم : متعجرف . |
| (٦) يستنشون الرياح : ينسمنها ، كناية
عن جوعهم . | (١٢) الوثيقة : الثقة . |
| (٧) يشير الحجاج إلى هزيمتين هزمهما
الأزارقة أمام المهلب بن أبي صفرة . | (١٣) كناية عن ذلته وانكشاف أمره . |
| | (١٤) تصدير المقال : تبطيره وتعبيره . |
| | (١٥) طبرى ٥٢/٥ . |

ورسائل الشيعة في هذا العصر كثيرة ، وأول حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة للحسين وما كان بينه وبينهم من مراسلات (١) تحضُّ على الثورة على بني أمية لظلمهم الرعية واغتصابهم الخلافة من أصحابها الشرعيين . ونمضى بعد مقتله فتلقانا حركة التوابين ، وبصور زعيمهم سليمان بن صرد في مكاتبته لبعض أصحابه ندمهم على خذلان الحسين ، وأنه ليس لهم من مخرج ولا توبة إلا بالثأر من قاتليه (٢) . وسرعان ما تنشب حركة المختار الثقفي لعهد ابن الزبير ، ويستولى على الكوفة ، ويكثر من المكاتبه إلى شيعته وإلى ابن الحنفية ، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدداً متوعداً إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم ، وفيها يقول (٣) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبيله ، فسلم أنتم ، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر (٤) ، فإن الأحنف مورد قومه سقر (٥) ، حيث لا يستطيع لهم الصدر (٦) ، وإني لأملك ما خُطَّ في القدر ، وقد بلغني أنكم تسمونني كذاباً ، وإن كذبت فقد كذبت رسل من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » .

وفي الرسالة خصائصه التي مرت بنا في خطابته ، إذ كان يُعنى باختيار ألفاظه والسجع في كلامه ، وفيها إيهاماته وادعاءاته إذ يشير من طرف خفي إلى أنه يوحى إليه . ومن ثم كان يستخدم السجع كثيراً في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرسالة الآتفة (٧) .

وأثرت عن ابن الزبير وولاته في العراق رسائل كثيرة احتفظ بها الطبري ، كما احتفظ برسالة كتب بها إليه المختار (٨) الثقفي . ونرى ولاته يكتبون من يوجهونهم إلى الخوارج (٩) . وولتقى في عصر الحجاج بثورة ابن الأشعث ومعروف أنه اتخذ كاتباً له أيوب بن القريظة المشهور بسجعه .

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) طبرى ٢٥٧/٤ وما بعدها . | من قبائل مضر . |
| (٢) طبرى ٤٢٩/٤ . | (٥) سقر : جهنم . |
| (٣) طبرى ٥٣٩/٤ . | (٦) الصدر : الرجوع . |
| (٤) يقولون ويل أم فلان إذا أرادوا التعجب منه . وكان المختار يعلى من شأن قبائل ربيعة التي آزرته ، ويقول إنها ستكفل بتيمم وغيرها | (٧) المبرد ص ٥٩٦ وما بعدها . |
| | (٨) طبرى ٥٤١/٤ . |
| | (٩) طبرى ٤٨١/٤ وما بعدها . |

وإذا كانت الكتابات السياسية قد كثرت في البيئات المعارضة للدولة فإن الدولة نفسها كانت تستخدمها استخداماً أكثر وأغزر ، إذ كان الخلفاء يكتبون بالعهود إلى من يتولون الخلافة بعدهم^(١)، سُنَّةً وضعها أبو بكر وعمر وسار عليها خلفاء بني أمية . وكذلك كانوا يكتبون بالعهود إلى من يولونهم على الولايات^(٢) . وكانت الكتب لا تزال ذاهبة آية بينهم وبين ولائهم في كل كبيرة وصغيرة . وكان قوادهم كلما فتحوا بلداً واستجاب إليهم أهلها عقدوا معهم المعاهدات .

ولا نستطيع أن نعرض بالتفصيل لكل ما دار بينهم وبين ولائهم وقوادهم من مراسلات يَطْفَحُ بها الطبرى وغيره ، ويكفى أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث ، فزياد بن أبيه يكتب مراراً لمعاوية في شأن حُجْر بن عدى وأصحابه من الشيعة^(٣) ، ويرد عليه . ويكتب يزيد إلى ولاته في الحجاز بشأن عبد الله بن الزبير والحسين بن علي^(٤) ، وتكثر الرسائل بينه وبين عبيد الله بن زياد في وفود الحسين على العراق وما كان من مصرعه^(٥) . ولم تكثر الرسائل السياسية بين الخلفاء وولائهم كما كثرت في عهد عبد الملك وخاصة بينه وبين الحجاج لكثرة الفتن والثورات التي نشبت في العراق وخراسان . وكان الحجاج نفسه يكثر من الكتابة إلى قواده ، ويكثر من الرد عليه ، وكان يكتب أحياناً إلى الثوار أنفسهم على شاكلة رسالته الآتفة التي أرسل بها إلى قطرى . ولا بد أن نقف قليلاً عنده إذ كان يُعْنَى بتجبير رسائله على نحو ما كان يعنى بتجبير خطبه . ونراه يكثر من مراسلة المهلب وحثه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتى لا تقوم لهم قائمة^(٦) ، كما يكثر من مراسلة قواده في حروب الخوارج الشيبية^(٧) وفي فتنة ابن الأشعث^(٨) وحروب خراسان^(٩) . ورسائله مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدة وحدة ، حتى في مخاطبته لبعض الأمراء ، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك - وهو لا يزال ولياً للعهد - من رسالة له : « إنما

(١) طبرى ٣٠٧/٥ . والكتاب للجيشيارى ص ٣١ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٣١ ، ٦٦ . (٦) طبرى ٥/١٢٠ والمبرد ص ٦٦٧ وما بعدها .

(٣) طبرى ٤/٢٠٢ وما بعدها . (٧) طبرى ٥/٧٩ وما بعدها .

(٤) طبرى ٤/٢٥٠ وما بعدها . (٨) طبرى ٥/١٤٩ وما بعدها .

(٥) طبرى ٤/٢٦٥ وما بعدها والوزراء . (٩) طبرى ٥/١٤٠ ، ١٤٦ .

أنت نقطة من مِداد ، فإن رأيت فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنت لك كما كنت
لها ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة فإن شئت محوتك وإن شئت أثبتك^(١)»
وكان الخلاف دبّ بينهما ، ومن ثمّ حاول كما قدمنا أن يصرف ولاية العهد عنه ،
ولكن الموت عاجله وعاجل الوليد بن عبد الملك قبل تنفيذ هذه المحاولة .
ومعروف أنه كان صنيعاً عبد الملك ، فهو الذي أظهره ، وما زال يرفع من
أمره حتى ولاّه العراق وخراسان ، وكان إذا كتب إليه تأتق ما استطاع في
تعبيره ، ومن خير ما يصور ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ ، يصف فيها
لعبد الملك خصباً بعد جدب ومطرّاً بعد قحط ، وهي تجرى على هذا
النمط^(٢) :

« أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وأبل منذ كتبت أخبره
عن سقيا الله إيانا إلا ما بطل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ^(٣) ، حتى
دقعت^(٤) الأرض واقشعرت^(٥) واغبرت^(٦) ونارت في نواحيها أعاصير تذر^(٧) و
دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلأحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨)
وامتناعها ، وأرضنا أرض سريع تغيرها ، وشيك تنكرها ، سبي ظن أهلها عند
قحوظ المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(٩) يوم الجمعة ، فأثارت زبرجاً متقطعاً
متمصراً^(١٠) ، ثم أعقبته الشمال^(١١) يوم السبت ، فطحطحت^(١٢) عنه جهامه^(١٣)
وألقت متقطعته ، وجمعت متمصره ، حتى انتضد فاستوى ، وطما وطحا^(١٤) ،
وكان^(١٥) جوتاً^(١٦) مرثعناً^(١٧) ، قريباً رواعده ، ثم عادت عوائده بوابلٍ منهمل

(١٠) الزبرج : السحاب الرقيق ، والمتمصر :

المتقطع .

(١١) الشمال : الريح الشمالية .

(١٢) طحطحت : بددت وقرقت .

(١٣) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(١٤) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط

وملأ الأفق .

(١٥) كان هنا بمعنى صار .

(١٦) الجون : الفصارب إلى السواد

(١٧) مرثعنا : سائلا .

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩٧ .

(٢) البيان والتبيين ٤/ ٩٩ .

(٣) الطش والرش والرذاذ : المطر القليل .

(٤) دقعت : خلت من النبات .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .

(٦) اغبرت : تربت من الغبار .

(٧) تذر : تسقى وتحمل .

(٨) الاعتزاز : من الغزاز ، وهي الأرض

الصلبة .

(٩) القبول : الريح الشرقية .

مُنسَجِل^(١) ، يردف^(٢) بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب أردفته شآبيب^(٣) لشدة وقعه في العراض^(٤) . وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهي ترى بمثل قِطْعِ القُطْنِ ، قد ملأَ اليَسَاب^(٥) . وسدَّ الشَّعَاب^(٦) ، وسقَى منها كلُّ ساقٍ . فالحمدُ لله الذي أنزل غَيْثَهُ ونشر رحمته من بعد ما قنطوا^(٧) ، وهو الوليُّ الحميد ، والسلام .

ويتضح في الرسالة ما اشتهر به الحجاج في خطبه من تزيينها بالصور الدقيقة والألفاظ الغريبة . وكان غيره من الولاة والقواد لا يزالون يحنطون لكلامهم ، وينمقونه صوراً مختلفة من التثنيق ، وسرى عما قليل طبقة من الكتاب المحترفين تتوفر على إدراك هذه الغاية بكل وسيلة ، وهم كتَّاب الدواوين .

وأخذت تشيع ، وخاصة منذ أواخر القرن ، كتابات وعظية كثيرة ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعضاتهم ، ويُرَوِّى أنه لما ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبَّح له رسالة طويلة أسهلها بقوله^(٨) .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قيوام كل ماثلة وقصد^(٩) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(١٠) كل مظلوم ، ومفرغ كل ملهوف . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيقي بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مَرَاتِعِ الملركة ، ويحميها من السَّبَاع ، ويكفيها من أذى الحَرِّ والقُرِّ^(١١) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتب لهم في حياته ، ويدبِّح لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة بولدها ، حملته كرها ، ووضعت كرها ، وربته طفلاً ، تشهر بسهره ،

- | | |
|---|----------------------------------|
| (١) منسجل : منصب . | (٦) الشعاب : المسالك والسبل . |
| (٢) يردف : يتبع . | (٧) قنطوا : ينشوا . |
| (٣) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . | (٨) المقعد ألفريد ٣٤/١ . |
| (٤) العراض : جمع عرض وهو الناحية . | (٩) قصد : هداية . |
| (٥) اليساب : الموضع الخالي لانيات فيه . | (١٠) نصفة : من الإنصاف . |
| | (١١) القر : البرد ، مثلث القاف . |

وتسكن بسكونه، تُرُضعه تارة وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته .
ومضى يذكر له حقوق الرعية عليه وحقوق الدين وما ينتظره من الموت
والبعث والوقوف بين يدي الله وما ينبغي أن يتزوّد لذلك من التقوى والحكم الصالح .
والحسن في هذه الرسالة يستخدم نفس أسلوب خطابته الذي مرّ بنا وصفه ،
والذي يقوم على الازدواج وتزيين المعاني بالصور حتى تتمكن في النفس ، وكان
يزيدها تمكيناً بمقابلاته وطبقاته الكثيرة . وكان يجاريه - كما قدمنا - في هذا
الأسلوب كثير من الوعاظ ، وعلى رأسهم غيّلان الدمشقي ، ويُروى أنه كتب
إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة ، منها قوله (١) :

« اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خَسَافاً بالياً، ورَسَماً عافياً، فَيَامِئْتُ
بين الأموات لا ترى أثراً فتتبع ولا تسمع صوتاً فتنفخ ، طَفِئَتْ أُمُورُ السَّنة ،
وظهرت البدعة ، أُخِيفَ الْعَالَمُ فَلَا يَتَكَلَّمُ ، وَلَا يُعْطَى الْجَاهِلُ فَيَسْأَلُ . »

وقد أشاد الجاحظ ببلاغته (٢) ، مشيراً إلى أن أدباء العصر العباسي كانوا
يتحفظون كلامه وكلام الحسن البصري ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة
البيانية (٣) . وما نشك كما أسلفنا - في أن بلغاء الكتّاب في عصرهما كانوا
يجارونهما في أساليبهما هما وأضرابهما من الوعاظ ، فنحن لا نقرأ في
سالم وعبد الحميد الكاتب حتى نجد عندهما نفس هذا الأسلوب الذي يتحلى
بالطباق والتصوير والذي يقوم على التوازن في الكلام توازناً ينتهي به إلى الازدواج ،
حتى يؤثرا في أنفس من يقرءونهما ويستوليا على ألبابهم .

وبجانب الكتابات الوعظية والسياسية شاعت في هذا العصر الكتابات
الشخصية ، بحكم تباعد العرب في مواطنهم ، وبتأثير بعض الظروف من موت
يقتضى التعزية أو ولاية تقتضى التهنية ، أو شفاعة عند والٍ لقریب أو صديق ،
أو عتاب أو اعتذار . وطبيعي أن لا يُعنى أصحاب هذه الكتابات بتسجيلها ،
لأنها لم تكن تتصل بحياة الأمة ، ومن ثم سقط جمهورها من يد الزمن إلا بقية
قليلة ، فن ذلك رسالة عقّال بن شيبّة إلى خالد القسري في شفاعة تجرى على
هذه الصورة (٤) :

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٦ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٩٥/١ .

(٤) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

صفوت ٤١٦/٢ .

« إن الله انتخبك^(١) من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطراً^(٢) شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية: وأعان خطرك بقدرة مقسومة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكتافك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار^(٣) الله لك، وليس كلهم أداله^(٤) الزمان ولا ساعده الحظ. وأحق من تعطف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى له ذكره، ويحسن به نشره، مثلك. وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية^(٥) قرابتي، وذوى الهيئة من أسرقى، عرف معروفك، وأحببت أن تُسببته نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتني وإياه ما تجده باقياً على النشتر، جميلاً في الغيب^(٦) ».

وتدل هذه الرسالة دلالة واضحة على أن كتاب الرسائل الشخصية أو على الأقل طائفة منهم كانت تُعنى عناية شديدة باختيار ألفاظها وتنسيقها، متوسلة إلى ذلك بكل ما تستطيع من انتخاب الألفاظ الرشيقة وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام، مع دقة التعبير وتجليته عن المعنى؛ والفقهاء الحسن بمدخل التأثير في نفس القارئ وما ينبغي أن يسلك إليه الكاتب من طرق كي يستولى على عقله، فيقضى له حاجته. ومن أشهر في هذا اللون من الرسائل الشخصية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي قُتل بخراسان بأخرة من هذا العصر، فقد كان لساناً بليغاً، يعرف كيف يحوك الكلم ويصوغه صياغة باهرة على نحو ما نجد في هذه الرسالة التي كتب بها إلى بعض إخوانه معاتباً، إذ يقول^(٧):

« أما بعد فقد عاقني الشكُّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف عن غير خبيثة، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب، فأطمعني أولك في إخالك، وأياسني آخرك من وفائك، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بليضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام ».

- | | |
|--------------------------------------|--------------------------|
| (١) انتخبك : اختارك . | (٥) دنية : لاصق . |
| (٢) خطراً : قدراً . | (٦) الغيب : العاقبة . |
| (٣) خار الله لك : جعل لك فيه الخير . | (٧) البيان والتبيين ٨٤/٢ |
| (٤) أداله : نصره وأعانه . | |

وكل كلمة من هذه الرسالة تنبئ عن دقة الكاتب وحلقه ، وأنه يعرف كيف يتخيّر ألفاظه وكيف يصوغها وكأنها عقود جميلة تتألف من جواهر أنيقة . وهو لا يقتدر على اللفظ فحسب ، بل هو أيضاً يقتدر على جكّنب المعاني الظريفة ، التي تروع بما فيها من منطلق عقلي دقيق ، وهو يعرضها في أسلوب من الازدواج الرشيق تزينه الاستعارات والطباقات .

وعلى هذا النحو أخذت الكتابة تترقى لافي الرسائل الشخصية فحسب ، فقد رأينا كتّاب العظات والسياسة يحقّقون نفس الرقي ، وجرى بنا الآن أن نتحول إلى كتّاب الدواوين ، لئرى ما أصاب الكتابة على أيديهم من تجويد وتَحْيِير .

٣

كتّاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دوّن الدواوين في الإسلام ، وتؤكد الروايات التي رافقت صنعته بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم^(١) ، إذ أحسّ حاجته إلى سجلّات يدوّن فيها الناس وأعطياتهم وأموالهم والغنائم ، وبذلك وضع أساس ديوانيّ الخراج والجنّد ، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم^(٢) ، وفيه كانت تُختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغيّر فيها من يحملونها إلى الولاية . وظل ديوان الخراج يُكْتَسَبُ في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان ، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الخُشْتِي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي^(٣) ، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق

(١) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ١٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ .

الفارسي^(١) ، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية ، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر^(٢) هشام بن عبد الملك .

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك ، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها ، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم ، وما توأصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه « الوزراء والكتاب » بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية .

ونحن في الواقع إنما يهمننا ديوان الرسائل . لأن أصحابه هم الذين كانوا يديبّون الكتب على السنة الخلفاء والولاة ، وبحكم وظيفتهم كانوا يُختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللّسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، حتى يروق من يكتب على لسانه ، وينال رضاه واستحسانه .

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتّاب محترفين ، تنابت أجيالهم على مرّ الزمن في هذا العصر ، وكلُّ جيل سابق يُسلم إلى خلفه صناعته ، وكل جيل لاحق يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعةً جديدة . وكانوا كثيرين ، إذ لم تختص بهم دمشق ، فقد كان لكل وال وقائد كاتب ، وأحياناً كان يتخذ الوالى في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب . وكثيراً ما كان يطمح كتّاب الولايات إلى أن يتلقّوا ببلاغتهم من يكتبون إليهم من الخلفاء ، حتى يعينهم في دواوينهم . واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده ، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه^(٣) ، وكان إذا أعجبه كاتب وملاً نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتّابه ، على نحو ما صنع بمحمد^(٤) بن يزيد الأنصارى . ولم يعرض علينا الجهشيارى آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلاً ، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء ، وفي عهد كل خليفة يسردُ أسماء

(١) الجهشيارى ص ٣٨

١٨٧/٥ والمبرد ص ١٥٨

(٢) الجهشيارى ص ٦٧

(٤) طبرى ٢٠٨/٥

(٣) البيان والتبيين ٣٨٧/١ والطبرى

كُتِّبَ الولاية . وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقه وجهارة صوته ، وكان خطيباً لا يبارى^(١) . ولم يُؤثّر عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية ، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه ، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده ، فأجابه عمرو^(٢) :

« أما بعد فإن استدراج النعم إياك أفادك البغى ، ورائحة القدرة أورثك الغفلة . زجرت عما واقعت مثله ، وندبت إلى ما تركت سبيله ، ولو كان ضعف الأسباب يُؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذل عزيز . وعمّا قليل تبيّن من أسير الغفلة ، وصریح الخدع ، والرحيم تعطف على الإبقاء عليك ، مع دفعك ما غيرك أقومُ به منك والسلام » .

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة . وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد عبيد^(٣) الله بن أوس الغسانی ، وروى له الجهشياري رسالة على لسان يزيد إلى عبيد الله بن زياد ليتخذ العدة في مقاومة الحسين بن علي حين نزوله العراق وهي تمضي على هذا النحو^(٤) :

« أما بعد فإن الممدوح مسبوبٌ يوماً ما ، وإن المسبوب ممدوح يوماً ما وقد انتميت إلى منّصبٍ كما قال الأول :

رُفِعَتْ فجاورتَ السحابَ وفوقه
فما لك إلا مرّقبَ الشمسِ مرقبُ
وقد ابتلى بحسين زمانك دون الأزمان ، وبلدك دون البلدان ، ونُكِبَتْ به من بين العُمَمال ، فإما تُعتقُ أو تعود عبداً ، كما يُعبّد العبيد ، والسلام » .
والرسالة قصيرة ، ويظهر أنهم كانوا يستحبون القصر في الرسائل الديوانية حتى هذا العهد . وكان أول من أطال فيها كاتب لعبيد الله بن زياد يسمى عمرو^(٥) بن نافع ، ولا شك في أن هذا الطول رمز لما كان يأخذ به الكتاب أنفسهم في هذا التاريخ من التفنن في القول ، وهو تفنن كان يفتقر إلى ترتيب

(١) انظر البيان والتبيين ١/٣١٥ وراجع

(٢) الجهشياري ص ٢٤ ، ٣١ .

(٣) الجهشياري ص ٣١ .

(٤) طبري ٤/٢٨٥ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٧ .

ورياضة في نسق الكلام وضبط أساليبه ، حتى يخلدوا ألباب من يقرءونهم .
ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان ، فنجد بين كتّابه رَوْح بن
زِنْبَاع الجُدَامِي ، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي (١) الكتابة ، وليس بين
أيدينا رسائل ماثورة له ، وروى له الجهشياري وغيره كلمة قالها معاوية وقد
غضب عليه يوماً لأمر كان منه ، وهمّ به ، فقال له (٢) :
« لَا تُشْمِتَنَّ بِي عَدُوًّا أَنْتَ وَقَمَمْتَهُ (٣) ، وَلَا تُسَوِّءَنَّ بِي صَدِيقًا أَنْتَ مَسْرُوتَهُ ،
وَلَا تَهْدِمَنَّ مَنِي رِكَتَا أَنْتَ بِنَيْتَتِهِ ، هَلَا أَقَى حَلْمَكَ وَإِحْسَانَكَ عَلَى جَهْلِي وَإِسْمَاعِي ؟ » .
فعفا معاوية عنه .

ورأسُ كُتُوبِ عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الحُشَيْنِي كاتب
رسائله الذي حوّل الدواوين من الرومية إلى العربية ، ولم تنصّ المصادر القديمة
على ما كتبَ به بين يدي الخلفاء . وما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة
والبيان ، وفي الجَهْشِيَارِي أنه خلا بيزيد بن عبد الله كاتب يزيد بن عبد الملك
قبل تولّيه الخلافة وكان يزيد حين ولى أزمة الأمور استدعى أسامة بن زيد
وإلى الخراج على مصر ، فقال سليمان لابن عبد الله (٤) : « لِمَ بَعَثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ؟ فَقال : لَا أَدْرِي ، قال : أَفَتَدْرِي مَا مِثْلُكَ وَمِثْلُ أَسَامَةَ ؟
قال : لَا . قال : مِثْلُكَ وَمِثْلُهُ مِثْلُ حَيَّةٍ كَانَتْ فِي مَاءٍ وَطِينٍ وَبَرْدٍ ، فَإِنْ رَفَعْتَ
رَأْسَهَا وَقَعَّ عَلَيْهَا حَافِرٌ دَابَّةٌ ، وَإِنْ بَقِيَتْ مَاتَتْ بَرْدًا ، فَرَّ بِهَا رَجُلٌ ، فَقالَت :
أَدْخَلْتَنِي فِي كَمِّكَ حَتَّى أَدْفَأَ ثُمَّ أَخْرَجَ ، فَأَدْخَلَهَا ، فَلَمَّا دَفَعْتَ قالَ لَهَا :
أَخْرِجِي ، فَقالَت : إِنِّي مَا دَخَلْتُ فِي هَذَا الْمَدْخَلِ قَطُّ فَخَرَجْتُ حَتَّى أَنْقُرَ
نَقْرَةً ، إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مِنْهَا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ ، وَوَاللَّهِ لَنْ دَخَلَ أَسَامَةُ لَيْسَنْقُرُتَكَ
نَقْرَةً إِمَّا أَنْ تَسْلَمَ مَعَهَا وَإِمَّا أَنْ تَمُوتَ » .

والكلمة تدل دلالة بينة على دقة مداخلة ومسالكة إلى الإقناع ، وإن
في نقله الدواوين ما يدل على سعة ثقافته وهي سعة كانت تقرن بعدوية المنطق
وتزيينه بالألفاظ المستحسنة السائغة على نحو ما توضحه كلمته .

(٣) رقه : تهره وأذله .

(١) الجهشياري ص ٣٥ .

(٤) الجهشياري ص ٥٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٨ والجهشياري

ص ٣٥ والأمال ٢/٢٥٩ .

وإذا ولينا وجوهنا نحو العراق وانشق رأينا الكتابُ يُعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق ، وما يؤثر من هذه العناية أن نجد عبد الرحمن ابن الأشعث يقول لابن القيرريّة كاتبه حين ثار على الحجاج: «إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجماً أعرفه فيه سوء فعالة وأبصره قبح سريرته» ويُسفد ابن القيرريّة مشيئته، ويردُّ عليه الحجاج برسالة مسجوعة^(١) . ولا تهمنا الرسائلان بقدر ما تهمنا رغبة ابن الأشعث في أن تكون الرسالة مسجوعة ، وكأنما يريد أن يضيف إلى حجته في الثورة حجة فنية من بلاغة كتابه .

وفي ذلك ما يدل دلالة صريحة على أن الكتابة السياسية أصبحت تقترن بها غايات بلاغية، وكلُّ كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه . ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يعمر - أحد علماء اللغة الأوائل - كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج ، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في «بادغيس» انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكاتب^(٢) :

«إنا لقينا العدو، فذبحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرونا طائفة، ولحقت طائفة بعرائر^(٣) الأودية وأهضام^(٤) الغيطان، وبتنا بعرة^(٥) الجبل وبت العدو بحضيضه^(٦)» .

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة ، وشجّعته على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ ، على نحو ما قدّمنا في غير هذا الموضع . وفعلا راعت الرسالة الحجاج ، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال : ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فكاتب إلى يزيد أن يُشخصه إليه ، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له : الأهواز ، فسأله : أنتي لك هذه الفصاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي^(٧) .

- (١) الأخبار الطوال للدينوري (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .
 (٢) البيان والتبيين ١/٣٧٧ والمبرد ص ١٥٨ والطبري ٥/١٨٧ .
 (٣) عرائر الأودية : أسافلها .
 (٤) أهضام الغيطان : مداخلها . والغيطان :
 جمع غائط وهو المستوى من الأرض .
 (٥) عرعة الجبل : أعلاه .
 (٦) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .
 (٧) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

وعلى هذا النحو كان كتاب الولاية والقواد في الشرق يجبرون رسائلهم ، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية . وكان ديوان الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكتاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية ، يقول الجهمشيارى : « كان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن أبي قرة كتب ليزيد بن المهلب (في ولايته لسليمان بن عبد الملك) ومنهم قُحندُم بن أبي سليم وشيبة بن أيمن كاتباً يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ابنا عطية ، وكان سعيد يكتب لعمر بن هبيرة ، ومنهم مروان بن إياس كتب لخالد القسرى ، وغيرهم »^(١) .

وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعنون بالطوامير والقراطيس^(٢) التي كانوا يكتبون فيها ، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم ، وفي الجهمشيارى أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظم كتبه ويجلّل^(٣) الخط الذي يكتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض^(٤) . ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على كتبهم ، حتى لرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد في القراطيس ، طالباً من الكتاب أن يوجزوا^(٥) ، وكأما أصبح الإطناب ظاهرة عامة .

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة ، وهي مدرسة رقي فيها التراث الفنى لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره ، إذ كان يتولّى ديوان الرسائل سالم مولى هشام ، وأخذ يخرج غير كاتب ، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله والثانى من غير بيته ، هو صهره وختنه عبد الحميد .

وكان سالم يجيد اليونانية ، ونقل منها - كما مر بنا - بعض رسائل لأرسططاليس ، ونرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول^(٦) ، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٧) . ومن يرجع إلى الجهمشيارى

- | | |
|--|-------------------------|
| (١) الجهمشيارى ص ٢٩ . | (٤) الجهمشيارى ص ٤٧ . |
| (٢) الطوامير والقراطيس : الصحف الكبيرة . | (٥) الجهمشيارى ص ٥٣ . |
| (٣) مجلّل : يعظم . | (٦) الفهرست ص ١٨٢ . |
| | (٧) الفهرست ص ١٧١ . |

يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له (١).

فإنخليفة لم يعد يُملى كتبه على كتابه كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ، ثم يعرضها عليه ، ومن ثمّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم ، بل أصبح ضمير غائب ، فالكاتب يقول في مستهل رسالته : « بلغ أمير المؤمنين كتابك » ونحو ذلك . ومن هنا كنا نزعّم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد . وقد يُنصّ على التلميذين ، أما سالم فقلما نصّت المصادر على اسمه . وتحوّل عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية . ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تُطبّع بطوايع أسلوبية واحدة ، إذ تجرى في أسلوب من الأزواج ومن اللغة الجزلة الرصينة ، على شاكلة القطعة التالية من رسالة على لسان هشام إلى يوسف بن عمر وقد استخفّ ببعض أهله (٢) .

« حللت هضبة أصبحت تنحو (٣) بها عليهم مفتخرآ ، هذا إن لم يُدْهده (٤) بك قلة شكرك متحطماً وقيداً (٥) ، فهلا - يا بن مجرشة (٦) قومك - أعظمت رَجَلهم عليك داخلا ، ووسّعت مجلسه إذ رأيتك إليك مقبلا ، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرماً ، ثم فاضتته (٧) مقبلا عليه ببشرك لإكراماً لأمير المؤمنين » .

والرسالة طويلة ، وهي كلها من هذا النسيج الأنيق الذي يزيّنه الأزواج والصور البيانية ، وقد أثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدّمه إليه ، وهي على هذا النمط (٨) .

« أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلىّ منك ، جسم الرجاء فيما بقي لي عندك . قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك ، وجعل

- | | |
|---------------------------|--------------------------------------|
| (١) الجهشيارى ص ٦٢ . | (٦) المحرشة : الماشطة . |
| (٢) طبرى ٦٨/٥ وما بعدها . | (٧) فاضته : حدّته . |
| (٣) تنحو : تشرف وتطل . | (٨) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي |
| (٤) يدهده : يسقط . | سبوت ٤٣١/٢ . |
| (٥) وقيداً : صريعاً . | |

ما سلف إلى منك عوناً على مؤتلف الرجاء فيك .
 وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخلة إلى ما يريد من إخوانه ،
 فهو يشكر ويرجو ، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه . واحتفظ
 المبرد في كامله برسالة لابنه عبد الله كتب بها على لسان هشام سنة
 تسع عشرة ومائة إلى خالد القسري حين أخذ ابن حسان النبطي وكيل هشام
 على ضياعه بالعراق فضربه بالسياط . وهو يفتتحها بقوله (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمرٌ لم يحتمله
 لك إلا لما أحب من ربِّ (٢) الصنيعة قبلك واستتمام معروفه عندك . وكان أمير
 المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك ، فإن تعدد مثل مقاتلك وما بلغ
 أمير المؤمنين عنك رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه . إن النعمة إذا طالت بالعبد
 ممتدة أبطرته ، فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه
 إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغيّر (٣) ، وانكشفت (٤)
 عنه عمارة الغيِّ والسلطان ، ذل منقاداً ، وندم حسيراً ، وتمكن من عدوه قادراً
 عليه قاهراً له . . . »

وأطبب عبد الله في الرسالة مبيناً لخالد ما بلغ هشاماً من فلتات لسانه ،
 ومصغراً لأمره بالقياس إلى سلفه الحجاج وقضائه على الفتن والثورات ، وكيف
 أن هشاماً أعلى من شأنه بتوليته على العراق مع وجود من يعاونه ويغفروه . ويمضي
 يعدد عليه أخطائه في سياسته وكيف أنه يستعين بالمجوس في أعماله ، وكيف
 ضيغ أموالا كثيرة ، هي أموال المسلمين ، في حفن نهر المبارك ، وكيف يبتز
 أموال رعاياه باسم هدايا النيروز والمهترجان وينحى عليه باللائمة فيما صنع
 بابن حسان ، ويسجل عليه نقص الخراج وأنه ولّى أسداً أخاه خراسان ، مظهراً
 بها العصبية الجنية متحاملًا على المضرية . وهو في ثنايا ذلك يتهدده برواجع
 بغيه وأنه إن لم يكف عن غيِّه فقبيل أمير المؤمنين كثيرون خير منه عاقبة وعملا .
 وطالت الرسالة ، حتى لكانها تاريخ مختصر لخالد القسري وولايته الطويلة

(١) المبرد ص ٧٩٠ وما بعدها .

(٢) القير : حوادث الدهر .

(٣) انكشفت : انكشفت .

(٤) رب الصنيعة : إتمامها وتنحيها .

على العراق . وهي جميعها مكتوبة بهذا الأسلوب الذي رأيناه في فاتحتها ،
والذي ثبتته سالم في دواوين هشام ، وقد انتهى هذا الأسلوب عند تلميذه
عبد الحميد إلى الغاية المرتقبة .

عبد الحميد ^(١) الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد ، من موالى بني عامر بن لؤي ، وهو فارسي
الأصل . ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق ^(٢) وسكن
الرقّة . وكان في أول أمره يتنقل في القرى معلماً في كتابتها ، وعرف في
نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك ، وأُعجب
به سالم فأصهر إليه ، وما زال به حتى خرّجه كاتباً لايبارى . وعرفه مروان
ابن محمد ، وكان عاملاً لهشام ، كما مرّ بنا ، على أرمينية ، فاتخذته
كاتباً له . ولعلنا لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إن ما أثبتته الطبري من رسائل
لمروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم
عبد الحميد . ويتولّى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢ هـ) فيصبح عبد الحميد
رئيس ديوانه ، وتتوالى رسائله الرائعة ، وعبثاً حاول أن يلم الشعث حين انقضت
جيوش أبي مسلم من خراسان ، حتى إذا هزم مروان في موقعة الزّباب ولّى
وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً في معركة بوضير .

وهكذا كان وفيّاً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته . وزعم بعض
الرواة أنه فرّ بعد موقعة الزّباب على وجهه ، واختفى مدة ، ثم وقف عليه السفاح
فأحضره وعذبه ، حتى مات . وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل
عثور السفاح عليه . وهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة ، ولعلّ مما يدل

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكتاب
للجهشياري ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ .
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان
والتبيين ١/٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون
الأخبار ١/٢٢ والصناعتين للمسكوي (طبعة
الجلبي) ص ٦٩ وصبح الأعشى ١/٨٥ ،
١٩٥/١٠ والبيتهمة للثعالبي (طبعة الصاوي)
١٣٧/٣ والجزء الثاني من جمهرة رسائل
العرب لأحمد زكي صفوت ومن حديث
الشعر والنثر لطف حسين ص ٤٥ وما بعدها .
(٢) انظر الفهرست ص ١٧٠ حيث يقول
إنه من أهل الشام .

(١) انظر في عبد الحميد الوزراء والكتاب
للجهشياري ص ٧٢ وما بعدها ووفيات الأعيان
لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية) ٣٠٧/١ .
والفهرست ص ١٧٠ والمسالك والممالك
للإصطخرى (طبع ليدن) ص ١٤٥ والبيان
والتبيين ١/٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٩/٣ وعيون
الأخبار ١/٢٢ والصناعتين للمسكوي (طبعة

على أنه قُتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده ، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم^(١)

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتّاب هذا العصر وأبرعهم ، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصّح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم^(٢) ، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » وفيه يقول ابن النديم : « عنه أخذ المرسلون ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسّل » . وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب ، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمشور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كماً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مرّ بنا في أول خطبته المتروعة الرائ . ولا تلتفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب ، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يُقال إنه كان أحد نقلها إلى العربية^(٣) . وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة ، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنهى إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة ، من ذلك رسالته إلى الكتّاب^(٤) وهي رسالة عامة ليست موجهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه ، وإنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة ، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية . ونحن لا نقرّها إلى ما استهلّ به الجهشيارى كتابه « الوزراء والكتّاب » من وصايا كان يوصي بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتّاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تعدّ دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة وحقوق للرعية في سياستها

(١) الجهشيارى ص ٨٢ .

. ٢٩/٣

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٤٢ .

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وصحح الأعشى

. ٨٥/١

(٣) الصناعتين ص ٦٩ والبيان والتبيين

وضبط شؤونها في الخراج وغير الخراج ، ونراه يرسم فيها ما ينبغى أن يحسنه الكتاب من ضروب العلم والثقافة ، يقول :

« فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلوم كتاب الله عزَّ وجلَّ ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقَافُ ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسييرها ، فإن ذلك مُعِين لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُونَ إِلَيْهِ بِهِمْمِكُمْ . وَلَا يَضَعُفُنْ نَظْرَكُمْ فِي الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ قِيَامُ كِتَابِ الْخِرَاجِ مِنْكُمْ » .

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحُلَى العلم والأدب ، ويصرح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شؤون الخراج . وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب ، وعيّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها . ومضى فطلب إليهم أن يتتقوا بتاريخ العرب . وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيورها ، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية . ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد حضهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته ، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرِّقَّة في العيش .

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طينفور^(١) وهي في رأينا تكملها ، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغى أن يجمعهم من إلف الوداد والصدقة ، ومضى في هذه الرسالة يفصّل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعاءه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة ، بما يبرّ به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان . وبذلك تدخّل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي الذي شاع في بلاط الساسانيين ، وصدر عنه ابن المقفع في كتابيه

(١) انظر جبهة رسائل العرب ٢/٤٣٤ .

الأدب الكبير والأدب الصغير (١) .

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسائلتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه (٢) وولى عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصهري ، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة ١٢٨ . ولا نكاد نلم بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طويلاً غير مألوف ، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القطع الكبير . وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلين دماء المسلمين ، وأنه رأى أن يكتب إليه بعهدهم يؤدي به حق الله الواجب عليه في إرشاده . ويمضي العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة ، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة ، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها . وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده . ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته ، ويُنْفِض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعهم . وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب ، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة ، ويصور له كيف يُعِدُّ جيشه حين اللقاء وكيف يتقسمه إلى وحدات ، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة . ويشير إلى ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال . وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنازل والولايات . ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غدوة ورواحه ومنازلة خصمه . ويختم الرسالة بالدعاء له .

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش ، وهو دستور استعان

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر » ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٩٥

فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسي من وصايا وتعاليم ، كانوا يديرونها في كتبهم ، هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكّامهم وماوكهم ، وقد شفّعها بتعاليم الإسلام الزكّية واطّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذي لا يجلب شيئاً من الفكرة ، بل يوضّحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتبع له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة ، وهي صياغة لا تكاد تفترق في شيء عن صياغة الحسن البصرى وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألنوا اللغة ومرّتوها لأداء معانيهم ، وكأما تحوّل إلى عبد الحميد أسلوبهم ، حتى أصبح لا يفترق عنهم في شيء ، فهو يزواج في ألفاظه ، وهو يتخذ إلى ذلك طريقهم في الترادف ، موشياً كلامه بالصور والطباقات والمقالات الكثيرة .

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية^(١) ، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان ، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه . ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام ، وكانت الجروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح ، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً ، فعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية . أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضّح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية ، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية ، وهي شائعة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ، ومرّت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله ، وفيها الحال واضحة . والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية ، فعن طريق غير مباشر ، نقصد طريق أستاذه سالم الذي كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مرّ بنا .

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية . وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربي ، وهي تتضح في رسالة ولي العهد السالفة حين نراه يقف ليفصّل له ما ينبغي أن تكون عليه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٤٠ وما بعدها .

أسلحته وخصيئله من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهليين فيها نثراً. ومن هذا الباب رسالته (١) التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحُمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغدُران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تُكْتَب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تُسند بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تزحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يُجْرى قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعننا براعته البيانية، ولا نستطيع أن نقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا نمضي دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة (٢) التي كتب بها إلى أهله يعزيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

«أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكُره والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درت (٣) له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها سكن إليها ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعصته بأنبيائها، وتوطأته بثقلها، قلاها (٤) نافرأ عنها، وذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفأويق (٥) استحلبناها، ثم شمت (٦) منا نافرة، وأعرضت عنامتنكرة، ورحتنا (٧) مولية، فأوح عذبا، وأمر

(٥) الأفويق: ما يتجمع في الضرع من اللبن.

(٦) شمت: من شمس الفرس إذا جمع.

(٧) رحمتنا: من رجع الفرس إذا ركله.

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٥٤٤.

(٢) الجهمياري ص ٧٢.

(٣) درت: من الدر وهو اللبن.

(٤) قلاها: كرهها وأبغضها.

حلوها، وخُشِنَ لَيْتِهَا، ففَرَّقْنَا عَنِ الْأُوطَانِ، وَقَطَّعْنَا عَنِ الْإِخْوَانِ، فِدَارُنَا نَازِحَةٌ،
 وَطَيْرُنَا بَارِحَةٌ (١)، قَدْ أَخَذَتْ كُلٌّ مَا أُعْطَتْ، وَتَبَاعَدَتْ مِثْلَمَا تَقَرَّبَتْ، وَأَعْقَبَتْ
 بِالرَّاحَةِ نَصَبًا (٢)، وَبِالْحَدَلِ (٣) هُمَا، وَبِالْأَمْنِ خَوْفًا، وَبِالْعَزِّ ذُلًّا، وَبِالْجِدَّةِ (٤)
 حَاجَةٌ، وَبِالسَّرَّاءِ ضَرَاءٌ، وَبِالْحَيَاةِ مَوْتًا، لَا تَسْرَحُ مِنْ اسْتِرْحَمِهَا، سَالِكَةٌ بِنَا
 سَبِيلَ مَنْ لَا أَوْبَةَ لَهُ، مَنْفِيَيْنِ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ، مَقْطُوعِينَ عَنِ الْأَحْيَاءِ .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميز بها في أسلوبه
 ومعانيه، فالألفاظ متخبة وليس فيها توعر ولا غريب وحشي، وإنما فيها
 العذوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها
 الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يعنى بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهي به
 إلى ازدواج واضح، ازدواج من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات
 موسيقية تثبت في الذهن وتجعلها جلاء تاماً. وهو يضيف إلى ذلك حلي من
 طباقات وتصويرات تُضفي على أسلوبه روعة بيانية خلاصة، بل إننا لا ندقق في
 القول حين نزع أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام،
 وكأنها سدها ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر
 الأموي على كل ما كان يُستَظَر لها من رقي وإبداع فني .

(٣) الجدل : السرور .

(٤) الجدة : الميسرة .

(١) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى

اليسار ، والعرب القدماء كانوا يتشاءمون بها .

(٢) نصبا : تعباً

خاتمة

١

خلاصة

انقسم العصر الإسلامى فى هذا الجزء إلى كتابين ، اختص أولهما بعصر صدر الإسلام وثانيهما بعصر بنى أمية ، وقد بدأت الكتاب الأول بالحديث عن الإسلام وقيَمِهِ الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية، مبيّناً كيف أخرج العربَ من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاءوا فيه بهدى القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد مضى من أسلموا يجاهدون معه قريباً والعرب ، حتى دخلوا فى دين الله أفواجاً . وألّمتْ بالإسلام بعد وفاة الرسول أحداث خطيرة ، فحروبُ الردة تتبعها الفتوح وفتنة عثمان تتبعها حروب على . وتأثّر الشعراء بذلك كله مستلهمين مثالية الإسلام الرفيعة ، وهم حقاً اختلفوا فى مدى تأثرهم واستلهاهم لتلك المثالية ، إذ كان منهم من مسّ الدين روحه مسّاً عنيفاً ، ومنهم من مسّ روحه مسّاً خفيفاً . ولكن حتى هؤلاء الأخيرين وجدتهم يتأثرون بالدين الحنيف ، على نحو ما يصور لنا ذلك الحطّيبُ ، فقد قال القدماء عنه إنه كان رقيقَ الدين ، ومع ذلك نراه يدعو إلى التقوى والعمل الصالح ، معلناً أنه مسلم ، وأنه من أجل ذلك لا يعمد إلى الإقذاع فى الهجاء فحسبهُ التهمك والسخرية . وكان بجانبه كثيرون يتعمقهم الإسلام من مثل حسان وكعب بن زهير ، بل كان هناك من أثر فى نفوسهم تأثيراً عنيفاً مثل لييد والناطقة الجعدى فإن بعض قصائدهما تتحول إلى مواظ خالصة .

وكان تأثر النثر بالإسلام أقوى قوة ، فقد نزل فيه الذكر الحكيم المعجز ببلاغته ، وألّقى به الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه وخطبه الرائعة . وبذلك

تحولت العربية من لغة وثنية ساذجة إلى لغة ذات دين سماوي باهر ، تخوض في معان جديدة من عبادة الله الواحد الأحد ووَصَف الكون في طرفيه من النشأة والدثور ورَسَم الكمال الروحية ووضع التشريعات المحكمة التي تحقق للناس السعادة في الدارين . وكانت خطابة الرسول تارة وعظاً وتارة تشريعاً ، وقد تجتمع بين الطرفين . ومضى الخلفاء الراشدون على هدى الرسول يعظون الناس ، وأخذت تدفع أبا بكر وعمر مواقف جديدة للكلام ، إذ أخذوا يخاطبون في الجيوش الفاتحة محمّسين وموصين باتباع تعاليم الإسلام السمحة في معاملة الأمم المغلوبة . وسار في نفس الدرب عثمان ، ثم علي بن أبي طالب ، وكان خطيباً مفوهاً ، وقد اندلعت الحروب الداخلية طوال عهده واندلعت معها خطابة كثيرة في صفوفه وفي الصفوف المعارضة كما اندلعت مناظرات مختلفة في الآراء المتقابلة ، وكل ذلك فسّح طاقة النثر العربي في صدر الإسلام ، ومدّ أطناها مدّاً واسعاً . وجدّت بجانب ذلك حاجة شديدة إلى الكتابة ، لا كتابة الذكّر الحكيم فحسب بل أيضاً كتابة معاملات المسلمين وعقودهم وكتابة موثيق الرسول صلى الله عليه وسلم وعهوده ، وأخذ يفرغ لذلك كتّاب مختلفون ذكروهم الجهمياري وغيره . وتحدّث الفتوح ، وتكثّر الرسائل بين الخلفاء وقوادهم وولاتهم ، كما تكثّر المعاهدات ، وفي أثناء ذلك ينشأ النثر الكتابي عند العرب ويرقى ، كما رقى النثر الخطابي ، بما أخذ يحمل من تعاليم الإسلام وتشريعاته .

وانتقلت إلى الكتاب الثاني الخاص بعصر بني أمية ، فتحدّثت عن مراكز الشعر في هذا العصر ، ووقفت أولاً عند المدينة ومكة وما غرقتا فيه من الحضارة والترّف واللهو والغناء ، مما كان له أثر واسع في نمو الغزل بهما وذبوعه على كل لسان . وكان سكان نجد وبادي الحجاز يعيشون في شظف من العيش هياً بتأثير الإسلام ومثاليته الروحية لظهور ضرب من الغزل العذريّ العفيف وشيوعه . وحدث أن عشائر قيسية كثيرة رحلت مع الفتوح إلى الشام والحزيرة فاصطدمت هناك بالقبائل اليمنية وبقبيلة تغلب المضرية . ونشبت بين الطرفين سلسلة حروب دامية عادت فيها العصبية القبلية والحمية الجاهلية ، فاشتعل الفجر والهجاء . وكانت الكوفة مستقرّاً للشيعة وثوراتهم ضد بني أمية فطُبع شعرها في جمهوره

بطابع شيعى حزين . وأخذت العصبية تحتدم في البصرة احتداماً ، وحملها منها الجنود المحاربون في خراسان ، فكثُر الشعر الذى ينطق عنها في البيتين . وكثرت سيول المديح فيما وفى الكوفة ، ومضت أسراب تنغى بالزهد أو بالمجون ، وأسراب أخرى تنغى بنظرية الخوارج السياسية وخاصة في البصرة وبين جيوش الأزارقة في فارس . ولم ينشط الشعر في الشام إلا قليلاً ، فإن أكثر ما أُشيد فيها وقد عليها إما مع مدّاح الأمويين وإما مع العشائر القيسية التى هاجرت إلى الشمال وإما مع بنى أمية أنفسهم ، فقد ظهر بينهم غير شاعر . وكان الشعر في المراكز الأخرى خامداً ، ومصر تنقدّمها لا بشعرائها الذين نبثوا فيها ، ولكن بمن وفدوا على ولايتها مادحين .

وكانت تؤثّر في الشعر الأموى مؤثرات عامة مختلفة ، فقد امتزج العرب في البلدان المفتوحة بالموالى ، وسرعان ما هجروا لغاتهم إلى العربية وعبروا بها عن عقولهم وقلوبهم وأعماق وجدانهم ، مما أحدث فيها صوراً مختلفة من التطور ، إذ دخلت فيها بعض الألفاظ الأعجمية وظهرت على ألسنة الموالى لكُنُتات مختلفة وانتشر اللحن ، وأخذت سلائق بعض العرب أنفسهم في الضعف . وقد مضى الشعراء جميعاً يستلهمون الإسلام في أشعارهم سواء حين يتغزلون أو يمدحون أو يهجون أو يحمسون للجهاد في سبيل الله أو حتى حين يصفون الصحراء . وتوزعتهم الفرق السياسية من زبيرية وخوارج وشيعة وغيرهم . ونعموا بالحضارات الأجنبية ، وساقهم ذلك إلى ضروب من المتاع الحسى واللهو والترّف . ودُعمت عقولهم بعناصر ثقافية مختلفة : جاهلية وإسلامية وأجنبية ، وانبعث بينهم فرق الجبّرية والمُرَجّنة والقَدْرية والمعتزلة ، وخضعوا لمؤثرات اقتصادية مختلفة . وكل ذلك نرى أصداءه في الشعر كما نرى فيه تعاوناً وثيقاً بين العرب والموالى ، فقد عاشوا بنعمة الإسلام إخواناً ، وكأنا مُحيت بينهم الفوارق الجنسية ، حتى ليفتخر الأعاجم بمواليهم من العرب ، إذ يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم من أبناء هذه القبيلة أو تلك ، ويتبادل العرب معهم نفس الشعور .

وكتثُر شعراء المديح والهجاء كثرة مفرطة ، فقد كان المدّاحون يتخذون ويروحون على أبواب الولاة والقواد والأجواد نائرين ورودَ الثناء محمّلين بنفائس

الأموال ، وخير من يمثلهم نُصَيْبَ والقطامي وكعب بن معَعدان الأشقري وزياد الأعجم . وسعرت العصبية القبلية شعراء الهجاء وخير من يمثلهم ابن مفرغ والحكم بن عَبدل وثابت قُطنة . وما لاريب فيه أن أبرع شعراء الهجاء والمديح جميعاً شعراء التفاضل النابهنون : الأخطل والفرزدق وجرير ، فقد أتاحوا للنقيضة كل ما كان ينتظرها من رقى ونهوض ، كما أتاحوا للمدححة كل ما كان ينتظرها من براعة وازدهار .

ووقف كثير من الشعراء في صفوف الفرق السياسية يحامون عنها ويتناضلون وكانت لكل فرقة نظرية في الخلافة تدافع عنها وتدود . أما الزبيريون فكانوا يرون من الواجب أن تعود حاضرة الخلافة إلى الحجاز وأن يستند الخليفة في حكمه إلى قريش لا إلى كُتُلب وغيرها من القبائل اليمنية التي يستند إليها الأمويون ، وابن قيس الرُقَيْتَات أهم من صدر في شعره عن هذه النظرية . وكان الخوارج يرون أن الخلافة حقٌ للمسلمين جميعاً لا لقريش وحدها ، وأنه ينبغي أن يتولَّها خير المسلمين تقوى وزهداً ، ولو كان عبداً حبشياً . وقد وهبوا أنفسهم للنضال عن نظريتهم مذبذبين في أشعارهم حماسة دينية ملتزمة ورغبة عنيفة في الاستشهاد وزهداً قوياً في الحياة ومتاعها الزائل ، ويمثلهم عمران بن حِطَّان والطَّرِمَاح . وكان الشيعة يرون أن الخلافة حقٌ شرعي لأبناء علي اغتصبه منهم الأمويون وينبغي أن يُردَّ عليهم ، وكان استشهاد أمتهم لا يبرح ذاكرتهم ، فضوا بيكونهم بدموع غزار ، مُحَنِّظِينَ النَّاسَ عَلَى أَنْ يثَارُوا لَهُمْ مِنَ الْأُمَوِيِّينَ وَيَذِيقُوهُمْ حَسَنَهُمْ ، كما مضوا يصوِّرون عقيدتهم فيهم وما يكتنون لهم ولأهل البيت من عواطف حارة متتليين بذلك إلى الله ورسوله الكريم ، ويمثلهم كثير والكُندِيَّة . وكان كثير من أشرف العرب وخاصة في الكوفة مَغِيظِينَ مُحَنِّقِينَ عَلَى الْأُمَوِيِّينَ لِجَعْلِ الْخِلاَفَةِ وَرَائِيَةً فِيهِمْ مِنْ دُونِ الْعَرَبِ جَمِيعاً ، وعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ ابْنُ الْأَشْعَثِ فِي ثَوْرَتِهِ وَشَاعِرُهُ أَعَشَى هَمْدَانَ فِي شِعْرِهِ وَاصْطَفَى مَعَ الْأُمَوِيِّينَ شِعْرَاءَ كَثِيرِينَ يَدْعُونَ لَهُمْ وَيَنَاضِلُونَ ضِدَّ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْخِصُومِ ، عَلَى شَاكِلَةِ مَا نَرَى عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ الْأَسَدِيِّ الْكُوفِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ الرَّقَّاعِ الدَّمَشْقِيِّ .

وتلقانا طوائف من الشعراء عاشت حياتها في اتجاه واحد أو على الأقل

في اتجاه غلبَ على حياتها وساد ، فن ذلك أصحاب الغزل الصريح من أمثال ابن أبي ربيعة والأحوص والمرجى ، وأصحاب الغزل العفيف من أمثال قيس ابن ذريح وجميل بثينة، وأصحاب الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وصابى البربرى ، وأصحاب اللهو والمجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي ، وأصحاب شعر الطبيعة من أمثال ذى الرمة. ومن ذلك الرجّاز ، وقد نهضوا بالأرجوزة من وجوه ، إذ جعلوها تتسع لكل أغراض القصيدة ، وأضافوا لذلك موضوعاً جديداً هو الطّرديات ، كما أضاف نفرٌ منهم إلى غاياتها الوجدانية غاية تعليمية جديدة إذ تحرّروا أن يودعوا أراجيزهم كل ما استطاعوا من شواذ اللغة وشواردها الآبدة .

وازهرت الخطابة في العصر الأموي ازدهاراً ، لعل العرب لم يعرفوه في أى عصر من عصورهم القديمة ، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية ، وعملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذ ، بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة ، فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين ، وكلٌ منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتضنن في بيانه ، وخير من يمثلهم زياد بن أبيه . ونمت بجانب هذه الخطابة خطابة المحافل بين أيدي الخلفاء والولاة ، إذ أخذ أصحابها يُعَسِّونَ بتحبير كلامهم ، وخيرٌ من يمثلهم الأحنف بن قيس . واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الدينى احتداماً ، وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كى يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتوه تثبيتاً قوياً ، وهو أسلوب نهض على حُلَى من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقات المعاني . وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة ، وبذلك أعدوا لنشأة علم البلاغة العربية ، وخير من يمثلهم الحسن البصرى .

ونمتى التدوين في هذا العصر نمواً واسعاً ، إذ دونوا معارفهم التي تتصل بالجاهلية وأخبارها وأنسابها وأشعارها كما دونوا معارفهم التي تتصل بالإسلام وما يرتبط به من تفسير الذكر الحكيم والحديث النبوى والفقه والمغازى وقصص الأنبياء ، ومضوا يدونون أخبار الأمم الماضية وأخبار الدولة الإسلامية وما صادفها

من أحداث وخطوب . وأخذت تظهر مصنفات في المثالب والأمثال والمواعظ والحكم وفي مسائل العقيدة . ودونوا كثيراً من الرسائل والخطب ، كما نقلوا إلى العربية بعض المعارف الأجنبية ، وخاصة في الكيمياء والطب والنجوم . وكثرت كثرة مفرطة الرسائل وخاصة السياسية . وأخذ كتاب الدواوين المحترفون ينهضون بالكتابة الديوانية ، حتى كان سالم رئيس ديوان هشام بن عبد الملك ، فإذا هو يتخذ فيها أساليب خطباء الوعظ والقصص الديني الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وتبعه عبد الحميد الكاتب ، فأوفى بالكتابة الديوانية على الغاية من غزارة المعاني وروعة الأسلوب وإعطائه حقوقه من الجزالة والرونق والطلاوة ، ومضى بدبج رسائل أدبية لا يقصد بها إلى سياسة ، إنما يقصد بها إلى الأدب من حيث هو فن جميل .

٢

تعليق

كل الشعراء الذين ذكرناهم في الخلاصة السابقة ترجمنا لهم ترجمات تختلف طولاً وقصراً حسب شخصياتهم الأدبية . وقد نظم ابن سلام المحضرين منهم في طبقات الجاهليين العشرة الذين أودعهم كتابه « طبقات فحول الشعراء » وقد جعل الطبقة الأولى للجاهليين وحدهم ، أما الطبقة الثانية فأدخل فيها كعب ابن زهير والحطيئة من المحضرين ، وجعل الطبقة الثالثة للبيد والنابعة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ ، وكلهم عاشوا في العصرين الجاهلي والإسلامي . وخص الطبقة الرابعة بمن عاشوا في الجاهلية . ثم مضى في الطبقات الست الباقية يمزج جاهليين بمحضرين . وتحدث عن شعراء المرائي وشعراء القُرَبي ، مُشيداً بحسان ابن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد ترجمنا لمن وضعهما في الطبقة الثانية مع بعض الجاهليين وهما كعب والحطيئة ، كما ترجمنا الاثنين من الطبقة الثالثة ، وهما لبيد والنابعة الجعدي ، وترجمنا لحسان . ولم نترجم لأحدوراءهم من المحضرين اكتفاء بهم ، إذ يعدون في الذروة من شعراء عصرهم ، ولأن لهم دواوين

كبيرة توضح شخصياتهم ومدى ما أثر به الإسلام في أشعارهم. ولم نُغفل من سواهم ، ممن داروا عند ابن سلام وفي الكتب الأدبية والتاريخية ، بل مثلنا لهم بأشعار كثيرة ، ووضعنا بإزاء المجيدين منهم في الهوامش مراجع أخبارهم وأشعارهم ، ليستعين بها من يريد متابعة دراستهم .

وإذا تركنا المخضرمين عند ابن سلام إلى شعراء عصر بني أمية وجدناهم يسلكهم في طبقات عشر ، يسميها طبقات الإسلام ، ومن يقرن من سَماهم في تلك الطبقات إلى من ترجمنا لهم يرى أننا عرضنا عن كثيرين ممن ذكرهم وعُنينا بآخرين لم يجرؤوا على لسانه ، لأنهم فعلاً يتقدمون من عرضنا عنهم من حيث تمثل الحياة التي عاشوها ، ومن حيث الشعر والشاعرية ، ومن ثمَّ اهتمَّ بجمهورهم صاحبُ الأغاني ، ففتح لهم في كتابه فصولاً طويلة ، وعنى الرواة بدواوينهم أو على الأقل بكثير منها ، فصنعه صنعة مُحكمة . وكثرة من سَماهم ابن سلام ليس لهم دواوين محفوظة ولا أخبار كثيرة مسجلة ، وهم غالباً من نجد ، وكأنه إنما عنى بمن كانوا يدورون على ألسنة اللغويين متمثلين بأشعارهم ومستشعدين ، ونفس ترتيبه لطبقاتهم يدل على ذلك دلالة بيّنة ، فقد سلك الراعي في الطبقة الأولى مع جرير والفرزدق والأخطل ، وهو شاعر مقلٌّ ، ويدنوعن طبقتهم درجات. وإنما دعاه إلى ذلك ما اشتهر به في بيئة اللغويين من إحسانه لنتع الإبل ، وحشده في هذا النعت لأوابد الألفاظ . ولو أنصف لأخبره عن طبقته ووضع فيها بدلامنه ذا الرُمة الذي يتقدم جميع شعراء عصره في وصف الصحراء وكل ما يتصل بها من إبل وغير إبل .

وقد جعل ابن سلام ذا الرُمة في الطبقة الثانية وقرن به فيها البعث والقطامي وكثيراً ، والبعث مقل ولا يرتفع بجناحه إلى آفاقهم جميعاً . ولذلك أهملناه كما أهملنا أصحاب الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة ، وهم على الترتيب كعب بن جعيل وعمرو بن أحمر وسُحَيْم بن وثيل وأوس بن مفرّاء ، ونهشل بن حرى وحُمَيْد بن ثور الهلالي والأشهب بن رُمَيْلة وعمر بن بلحأ التيمي ، وأبو زُبَيْد الطائي والمعجيز وعبدالله بن همام السلوليان ونُفَيْع بن لقيط الأسدي ، جميعهم مقلون ، ولا يمثلون عصرهم لا في أحداثه الجسام ولا في تطور فنون الشعر وأغراضه .

وجعل في الطبقة السادسة ابن قيس الرقيات والأحوص وجميلاً ونصيباً ، وهم أعلى من طبقتهم ، وقد ترجمنا لهم جميعاً . وقرن بالمتوكل الليثي في الطبقة السابعة ابن مفرغ وزيداً الأعجم وعدى بن الرقاع ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا المتوكل لقلة أشعاره . وجعل في الطبقة الثامنة عقييل بن علفه وشيب بن البرصاء ، وشعرهما جميعاً قليل قلة شديدة . وسلك في الطبقة التاسعة أربعة من الرجزاء هم : الأغلب العيجلي وأبو النجم والعجاج ورؤبة ، وقد ترجمنا للثلاثة الأخيرين وأهملنا الأغلب لقلة أراجيزه . وجعل الطبقة العاشرة لمزاحم العقبيلي ويزيد بن الطخريفة وأبي دؤاد الرؤاسي والقحيف العقبيلي ، وجميعهم مقلون . وعلى هذا النحو وضع ابن سلام في طبقات الإسلام شعراء مقلين لم يبلغوا في الشعر مبلغاً مذكوراً ، ونحى كثيرين يغنون فيه غناء محموداً ، مسوقاً في ذلك بدوافع لغوية خالصة ، ومن ثم عنى بشعراء نجد والبادي ، ولم يكده يعنى بشعراء المدن مع أنهم يفضلونهم بما دفعوا إليه الشعر من تطور مع الحياة الجديدة وبما نظموا من آيات رائعة . وقد أهمل ابن أبي ربيعة ، وهو أكبر شعراء الغزل في عصره ، وأهمل معه العرجي وأهمل شعراء الخوارج من أمثال عمران بن حطان والطرماس ، ولم يعن من شعراء الشيعة إلا بكثير ، وأهمل شعراء الزهد من أمثال أبي الأسود الدؤلي وسابق البربري وشعراء الحجون من أمثال الوليد بن يزيد وأبي الهندي .

وبذلك كله كانت طبقات الإسلام عند ابن سلام قاصرة عن إعطاء صورة حقيقية لحياة الشعر الخصبية في عهد بني أمية . وقد ترجمت لكل من ذكرتهم آنفاً من أهلهم ولآخرين لا يقلون عنهم إبداعاً . ومضيت أمثل في كل جانب من جوانب العصر وفي كل فن من فنون الشعر بأشعار مختلفة لغير من ترجمت لهم نائراً في الهوامش مراجع كثيرين منهم ، تُعين على التوسع في دراستهم . والذي لا شك فيه أن شعراء العصر الأموي تطوروا بالشعر في جميع مناحيه واتجاهاته وأنهم استطاعوا أن يمثلوا عصرهم فيه بجميع انطباعاته ، ناطقين بلسانه نطقاً أشاعوا فيه الروعة والجمال .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧ - ٥	مقدمة
١٣٥ - ٩	الكتاب الأول في عصر صدر الإسلام
٢٤ - ١١	الفصل الأول : الإسلام
١١	(١) قيم روحية
١٥	(٢) قيم عقلية
١٨	(٣) قيم اجتماعية
٢٢	(٤) قيم إنسانية
٤١ - ٢٥	الفصل الثاني : القرآن والحديث
٢٥	(١) نزول القرآن وحفظه وقراءاته
٢٧	(٢) سور القرآن وتفسيره في العهد الأول
٣٠	(٣) أثر القرآن في اللغة والأدب
٣٤	(٤) الحديث النبوي
٦٧ - ٤٢	الفصل الثالث : الشعر
٤٢	(١) كثرة الشعر والشعراء المخضرمين
٤٦	(٢) الشعر في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم
٥٣	(٣) الشعر في عصر الخلفاء الراشدين
٦٢	(٤) شعر الفتوح

صفحة

١٠٥ - ٦٨	الفصل الرابع : الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام
٦٨	(١) كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام
٧٧	(٢) حسان بن ثابت
٨٣	(٣) كعب بن زهير
٨٩	(٤) ليبيد
٩٥	(٥) الخطيبنة
١٠٠	(٦) النابغة الجعدي
١٣٥ - ١٠٦	الفصل الخامس : النثر وتطوره
١٠٦	(١) تطور الخطابة
١١٤	(٢) خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم
١٢١	(٣) خطابة الخلفاء الراشدين
١٢٩	(٤) الكتابة
٤٧٩ - ١٣٧	الكتاب الثاني في عصر بني أمية
١٦٨ - ١٣٩	الفصل الأول : مراكز الشعر الأموي
١٣٩	(١) المدينة ومكة
١٤٨	(٢) نجد وبادي الحجاز ونزوح قيس إلى الشمال
١٥٣	(٣) الكوفة والبصرة
١٦١	(٤) خراسان
١٦٥	(٥) الشام
١٦٦	(٦) مصر والمراكز الأخرى
٢١٤ - ١٦٩	الفصل الثاني : مؤثرات عامة في الشعر والشعراء
١٦٩	(١) الامتزاج بالأمم الأجنبية وتعرّبها وأثر ذلك في اللغة

صفحة	
١٧٦	(٢) الإسلام وأثره في موضوعات الشعر
١٨٢	(٣) السياسة
١٩٣	(٤) الحضارة
١٩٩	(٥) الثقافة
٢٠٧	(٦) الاقتصاد وموقف العرب من الموالى
٢١٥ — ٢٨٩	الفصل الثالث : شعراء المديح والمهجاء
	(١) شعراء المديح : نصيب ، القطامي ، كعب بن
٢١٥	معدان الأشقرى الأزدي ، زياد الأعجم
	(٢) شعراء المهجاء : ابن مفرغ ، الحكم بن عبدل ،
٢٢٩	ثابت قطنه
٢٤١	(٣) شعراء النقائض
٢٥٨	(٤) الأخطل
٢٦٥	(٥) الفرزدق
٢٧٦	(٦) جرير
٢٩٠ — ٣٤٦	الفصل الرابع : شعراء السياسة
٢٩٠	(١) شعراء الزبيريين : ابن قيس الرقيات
٣٠٢	(٢) شعراء الخوارج : عمران بن حطان ، الطرماح
٣١٥	(٣) شعراء الشيعة : كثير ، الكميت
٣٢٩	(٤) شعراء ثورة ابن الأشعث : أعشى همدان
	(٥) شعراء بني أمية : عبد الله بن الزبير ، عدى
٣٣٦	بن الرقاع
٣٤٧ — ٤٠٤	الفصل الخامس : طوائف من الشعراء
	(١) شعراء الغزل الصريح : عمر بن أبي ربيعة ،
٣٤٧	الأحوص ، العرجي

صفحة

- (٢) شعراء الغزل العذرى : قيس بن ذريح ، جميل
 ٣٥٩ ابن معمر
- (٣) شعراء الزهد : أبو الأسود الدؤلى ، سابق البربرى
 ٣٦٩
- (٤) شعراء اللهو والمجون : الوليد بن يزيد : أبو الهندي
 ٣٧٦
- (٥) شعراء الطبيعة : ذو الروثة
 ٣٨٥
- (٦) الرجاز : أبو النجم العجلى ، العجاج . رؤبة
 ٣٩٤
- الفصل السادس : الخطابة والخطباء ٤٥٠ - ٤٠٥
- (١) ازدهار الخطابة ٤٠٥
- (٢) خطباء السياسة : زياد بن أبيه ٤١٠
- (٣) خطباء المحافل : الأحنف بن قيس ٤٢٨
- (٤) خطباء الوعظ والقصص : الحسن البصرى ٤٣٥
- الفصل السابع : الكتابة والكتاب ٤٧٩ - ٤٥١
- (١) التدوين ٤٥١
- (٢) كثرة الرسائل المدونة ٤٥٦
- (٣) كتاب الدواوين : عبد الحميد الكاتب ٤٦٥
- خاتمة ٤٨٧ - ٤٨٠
- (١) خلاصة ٤٨٠
- (٢) تعليق ٤٨٥

obbeikandi.com

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

- لا عصر الدول والإمارات
(ليبيا - تونس - صقلية)
٤٤٦ صفحة
- لا عصر الدول والإمارات (الجزائر)
(المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان)
٧٠٦ صفحات
- في مكتبة الدراسات الأدبية**
- لا الفن ومذاهبه في الشعر العربي
٥٢٤ صفحة
- لا الفن ومذاهبه في النثر العربي
٤٠٠ صفحة
- لا التطور والتجديد في الشعر الأموي
٣٤٠ صفحة
- لا دراسات في الشعر العربي المعاصر
٢٩٢ صفحة
- لا شوقي شاعر العصر الحديث
٢٨٦ صفحة
- لا الأدب العربي المعاصر في مصر
٣٠٨ صفحات
- لا البارودي رائد الشعر الحديث
٣٠٨ صفحات
- لا الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
٣٣٦ صفحة
- لا البحث الأدبي
(طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره)
٢٧٨ صفحة
- لا الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور
٢٥٦ صفحة
- لا في التراث والشعر واللغة
٢٧٦ صفحة
- لا في الشعر والفكاهة في مصر
١٢٨ صفحة
- في الدراسات القرآنية**
- لا الوجيز في تفسير القرآن الكريم
١٠٥٢ صفحة
- لا سورة الرحمن وسور قصار
«عرض ودراسة»
٤٠٤ صفحات
- لا عالمية الإسلام
١١٩ صفحة
- لا محمد خاتم المرسلين
٤٧٦ صفحة
- لا الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة
٣٣١ صفحة
- في تاريخ الأدب العربي**
- لا العصر الجاهلي
٤٣٦ صفحة
- لا العصر الإسلامي
٤٦١ صفحة
- لا العصر العباسي الأول
٥٧٦ صفحة
- لا العصر العباسي الثاني
٦٥٧ صفحة
- لا عصر الدول والإمارات
(الجزيرة العربية - العراق - إيران)
٦٨٨ صفحة
- لا عصر الدول والإمارات (الشام)
٣٥٦ صفحة
- لا عصر الدول والإمارات (مصر)
٥٠٠ صفحة
- لا عصر الدول والإمارات (الأندلس)
٥٥٢ صفحة

لـ	المقامة
	١٠٨ صفحات
لـ	النقد
	١١٢ صفحة
لـ	الترجمة الشخصية
	١٢٨ صفحة
لـ	الرحلات
	١٢٨ صفحة
لـ	الحب العذرى
	١٤٨ صفحة
	في التراث المحقق
لـ	المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
	(الجزء الأول)
	٤٦٨ صفحة
لـ	المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
	(الجزء الثانى)
	٥٧٢ صفحة
لـ	كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
	٧٨٨ صفحة
لـ	كتاب الرد على النحاة
	١٥٢ صفحة
لـ	الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
	٣٥٦ صفحة

فى سلسلتى «اقرأ»

لـ	مع العقاد
لـ	البطولة فى الشعر العربى
لـ	الفكاهة فى مصر
لـ	معى (١)
لـ	معى (٢)
لـ	القسم فى القرآن الكريم
	٦٦٦ صفحة

لـ	من المشرق والمغرب
	(بحوث فى الأدب)
	٢٧٢ صفحة
	فى الدراسات النقدية
لـ	فى النقد الأدبى
	٢٥٠ صفحة
لـ	فصول فى الشعر ونقده
	٣٦٨ صفحة
لـ	فى الأدب والنقد
	١٥٢ صفحة
	فى الدراسات البلاغية واللغوية
لـ	البلاغة: تطور وتاريخ
	٣٨٠ صفحة
لـ	المدارس النحوية
	٣٧٦ صفحة
لـ	تجديد النحو
	٢٨٢ صفحة
لـ	تيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً
	مع نهج تجديده
	٢٠٨ صفحات
لـ	تيسيرات لغوية
	٢٠٠ صفحة
لـ	تحريفات العامية للفصحى
	٢٠٣ صفحات
	فى مجموعة نوابغ الفكر العربى
لـ	ابن زيدون
	١٢٤ صفحة
	فى مجموعة فنون الأدب العربى
لـ	الرتاء
	١١٢ صفحة